



لا شك أن الأرزاق التي يحصل عليها الإنسان في حياته هي مجرد قرض يفترضه من مالك هذا الكون، بطريقة أو بأخرى، بيسر أو بعسر، ثم إما يعيده له، بعد أن يتوفاه الله، إذا لم يكن عنده ذرية، فيقوم باقتراضه آخرون، أو يتركه للذرية لتعيده، عاجلاً أم آجلاً، إلى ربها أيضاً.

عبارة أخرى، فإن أموالنا وممتلكاتنا الزائدة عن حاجتنا الاستهلاكية ليست لنا أبداً، خاصة، وكما يقول المثل: ليس للكفن جيب نضع فيه مدخراتنا عندما نأوي إلى اللحد دون رجعة.

«ما حدش واحد منها حاجة»، مع ذلك يكتنز الإنسان المال، ويتهافت على جمعه حتى الرمق الآخرين، مع العلم أنه قد لا يستفيد منه، أو يستغله، أو يستمتع به في شيء، أو حتى لا يورثه لأولاده في أحيان كثيرة.

كم أشعر برغبة شديدة للضحك المجلجل على عبيد المال والرزق الذين لا هم لهم في هذه الدنيا سوى تكديس المزيد من النقود والممتلكات، كما لو أنها ستعيلهم بعد الموت. فهذا العجوز أو ذاك المريض يقاتلك، ويقاومك، ويحول حياتك إلى جحيم من أجل دراهم، مع العلم أنه يمتلك الملايين منها، وليس لديه حتى تلذ يستفيد منها بعد مماته، مع ذلك نجده بعض عليها بالنواجد، وهو يعلم أن شهوراً أو ربما أياماً فقط تفصله عن الموت المحتم.

أعرف شخصاً ثرياً بلا ذرية يعاني من عشرين مرضًا أو ربما أكثر، وبعضها خطير جداً، وبالكاد يستطيع أن يمشي بسبب الجروح المتقطعة في رجليه بسبب مرض السكر.

لكن صاحبنا لاهم له سوى ملاحقة سكان البناء التي يملكون فيها، وتنفيص حياتهم من أجل الحصول منهم على

بعض الدريهمات بطرق ملتوية، فمرة يتهم جاره بأنه وضع مدخنة قريبة من نافذته، ومرة يتهم آخر بفتح ثغرة صغيرة في الجدار للتهوية.

وما أن يعرض عليه المشتكي عليهم بعض النقود، حتى يتوقف عن الشكوى فوراً. وما أن يتوقفوا عن سد بوذه بالفلوس حتى تثور ثأرتهم، فيتوجه إلى السلطات على عكازيه بطريقة هستيرية هزلية كي يشتكى لتحصيل بعض القروش.

كم كان بودي أن أعبر عن حالة صاحبنا المرضية بشكل أكثر كوميدية، لكن لا بأس، فإن الأديب الفرنسي الشهير مولير سخر من هذا الصنف المضحك من البشر بشكل رائع في مسرحية «البخيل».

آه كم فسدت حياتنا في عصر الثروة والتحصيل المادي العظيم! الكل في عجلة من أمره، فتجد مثلاً رجل أعمال غارقاً في الثراء حتى أذنيه، يبتلع وقت الغداء سندويشه هزيلة بلاوعي، كما تبتلع الأفعى فريستها، وهو يفكر بالصفقة القادمة أو المرابح المرجوة.

صحيح أننا «نأكل لنعيش، ولا نعيش لأنأكل»، لكن الله عز وجل نصحنا بأن نأكل «من طيبات ما رزقناكم»، أو بالأحرى الاستمتاع بالطيبات، لكن، للأسف غدونا عبيداً للمال الذي نستقتل كي نجمعه ثم نموت تاركيه وراءنا.

كم ألهف لأعرف كيف يفكر الآثرياء من جنسبني آدم! ما هي نظرتهم للرزق وللحياة والموت؟

ألا يشعرون بخفة مخيفة عندما يتذكرون أن كل ما جمعوه وكدوه من ممتلكات ستؤول إلى غيرهم بعد سنوات قلائل؟

هل يدركون أن ما يملكونه هو ما يصرفونه فقط؟

هل يعلمون أن ما لا يصرفونه سيتهي في أيدي غيرهم؟

هل يعلمون أن أولادهم قد يبددون كل ما ورثوه في سويعات على أسف الأمور وأحقراها؟

هل فكروا أن كل ذلك الركض وراء المال نهاية عبثية، وأن كل شيء ينتهي في لحظة؟.

كم أضحكني أحد الإقطاعيين المسنين ذات مرة وهو يدلني على ألف الدونمات التي يمتلكها من الأراضي؛ «فهذه الهاكتارات المتراصة الأطراف لي، وتلك أيضاً»، راح الإقطاعي يحدثني متباهياً بأملاكه الشاسعة.

لكني ما لبست أن سألته بنوع من السخرية: «ألا تعتقد أن تلك الفدادين الهائلة من الأراضي ليست ملكك، بل مؤجرة لك إلى حين، أو تكون في عهديك لفترة محددة لا أكثر ولا أقل، ثم تنتقل ملكيتها إلى شخص آخر بعد سنوات معدودة، وهكذا دوالياً، فالملك لله وحده؟» فصمت الإقطاعي قليلاً، وبدت على وجهه علامات الغضب، كما لو أني شرحت في أحقيه امتلاكه لتلك الأرضي، أو نافسته على ملكه الوفير. لكنه سرعان ما اعترف مجبراً بأن الأرض باقية وهو فان قريباً.

ربما تذكر حينها بيت أبي العلاء المعربي الشهير: **«خفف الوطء ما أظن أديم الأرض*** إلا من هذه الأجسادِ»**.

وذات يوم سالت ابنتي عن صديقتها الثرية جداً: «كيف تشعرين وأنت تصادرين طفلة غنية جداً جداً؟»، فضحكـت بطريقة فلسفية معبرة وقالـت: «تصور يا أبي أن صديقتي لديها من الأماكن الخلابة الكثير الكثير. لكن المضحـك فيها أنها تمضـي وقتـها في غرفة نومـها بـمنتجـعـاتهم الخاصة وهي تحـادـث صـديـقاتـها عبرـانـternetـ. وبالـكـاد تـسـتـمـتع بـمنـاظـرـ المنتـجـعـاتـ منـ شـواـطـئـ ومـزارـعـ ومـصـحـاتـ وـقصـورـ وـفـللـ، وـمعـ ذـلـكـ فـهـيـ وـأـهـلـهـاـ تـطـمـعـ بـالمـزـيدـ وـالمـزـيدـ منـ المـمـتـلـكـاتـ!ـ»

عجبـ أمرـ هذاـ الإنسـانـ الذيـ يـفتحـ عـشـراتـ الحـسـابـاتـ البنـكـيـةـ، وـبـيـنـيـ القـصـورـ وـالـفـللـ وـالـأـبـرـاجـ الشـاهـقةـ وـنـاطـحـاتـ السـحـابـ، وـيـقـيمـ المـشـارـيعـ الـهـائـلةـ، وـيـشـتـريـ مـئـاتـ الـعـقـارـاتـ وـالـمـزارـعـ وـحتـىـ الـجـزـرـ هـنـاكـ، لـكـنـهـ لاـ يـجـدـ الـوقـتـ كـيـ يـسـتـمـعـ بـهـاـ،

فيمضي لياليه في سرير طوله متراً وعرضه متر في حجرة كالزنزانة.

فإن الإنسان مهما امتلك من قصور وأراضٍ شاسعة وعقارات لن يكون بمقدوره سوى النوم على مساحة مترين. وقد لا يجد من بين تلك المساحات مكاناً ليحتضن جثته فيما لو انفجرت به الطائرة أو مات في البحر. ولن يملأ أكثر مما تقدر عليه معدته، ولو كان يتحكم بتجارة القمح في العالم.

هل سيتوقف أحد عن اللهاث وراء المال والممتلكات بعد هذا المقال؟ بالطبع لا. لكن فليعلم اللاهثون على الأقل أن المال الذي لا تنفقه ليس لك!

القدس العربي

المصادر: